الابتذال بالأمثال

لوحظ أن الاستخدام اليومي للكلام لا يخلو من التعبيرات غير اللائقة مما يساق على أنه مثل شعبي أو مقولة شعبية، ومثل هذه المقولات هي عابرة للطبقات الاجتماعية بجميع مستوياتها الثقافية، فلا تقتصر على طبقة معينة دون أخرى.

ولقد ترددنا في إيراد أمثال في هذا المجال، لكن آثرنا أن نوردها، فابتذالها لا يعني عدم انتشارها بين العائلات.

إن ما يؤسف له في هذا المجال أن مثل هذه الأقوال والأمثال استخدمت كل أنواع المفرزات البشرية، بالإضافة إلى استخدام جميع أنواع الحيوانات، وهنا قد نتساءل: من أين أدخلت كل هذه الحيوانات على ثقافة أهل الشام الذين اشتهروا بالتجارة وليس بالزراعة أو تربية المواشي؛ إذ إننا نعتقد بأن طبيعة المنطقة تنعكس على كلام أهلها، فمثلاً لما كانت الصحراء تكثر فيها الجمال والإبل وحشرات الصحراء والرمال، فإن ذلك بلا شك ينعكس على طبيعة كلام سكان الصحراء، وفي مثال آخر نجد أن أهل الأسكيمو لديهم أسماء كثيرة للثلج تتجاوز عشرة أسماء لأنهم محاطون به طبيعياً، ومن ثمَّ فإن الأمثال تنتمي إلى البيئة التي نعيش فيها، لكن ما لا يمكن فهمه هو كيف وصلت هذه الأمثال إلى لغتنا وفي أمثالنا في الشام إلى جميع أنواع الحيوانات، مع أن البشر في حاضرة الشام لا تعاشر هذه الحيوانات؟ ربما نفهم ذكر الديك والفراخ والطير والخروف، لكن أن تتعدى إلى أكثر من ذلك فهناك وقفة تحتاج إلى قراءة، هذا أولاً؛ أما ثانياً: فيلاحظ أن ذكر الحيوان في حكمة ما هو لتقوية المثل الذي يلجأ إلى ما تشمئز منه النفس أو إلى الحيوان، فينأى المخاطَب بأن يكون بفعله

هذا مماثلاً لهذا الحيوان، فيقبل الحكمة المذكورة أو التنبيه المذكور في المثل دون جدل وكأنه حقيقة مطلقة.

فمثلاً قيل: "**الحمار إذا وقع بجورة ببطِّل يمر من ناحها**"، وقيل: "**التكرار بعلِّم الحمار**"، فيولد ذلك عند السامع صدمة تمنعه تماماً من أن يفعل هذا الفعل.

وعندما يراد تسفيه أمر ما أو شخص ما يقال: "**جنازة محرزة والميت كلب**"، وفي وصف طباع الشخص السيئة: "**انكشو وشوف ما أجحشو**".

وتوجه المثل إلى من يريد الاستعداد للزواج والخطبة للحط من معنوياته: "**وجواز قبرصي**" (المقصود زوجان من حوافر قدمي الحمار القبرصي المعروف أنه يرفس بقوة) أما في وصف الحال السيئ فيقال: "**أكتر من قرد ما مسخ الله**".

وقد مر ذكر الكثير من الحيوانات في قسم التربية والتي توجه إلى الأولاد، ولا مجال لإعادة ذكرها هنا.

المفرزات البشرية في الأمثال

قد يتنادر بعض الأشخاص بمثل هذه الأمثال إما للإضحاك وإما للتفكه، أو يقصدها حقاً، لكن مما لا شك فيه أن ذكر المفرزات البشرية في سياق الكلام مهما يكن الهدف منه فإنه يهبط بالمستوى الاجتماعي، وهو منطق يعيب أي مجتمع ينطق به، ولن تحمل مثل هذه المقولات يوماً الديمومة والسيرورة التي تحملها الحكم البشرية التي تتناقلها الأجيال عبر الأزمنة، ولا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال إرثاً ثقافياً تجب المحافظة عليه، فمثل هذه الألفاظ غير مقبولة في كل المعايير.

إن مثل هذه الأمثال فيها إساءة للمتلقي وللقائل وإن كانت أحياناً تحمل في معانيها صحة أو حقيقة أو منطقاً أو حتى حكمة بشرية، لكن استخدام المفرزات يسقط منطق الحكمة والحقيقة فيها، ويجعلها مرفوضة لفظاً ومضموناً.

فالكلام كي يصل إلى مستوى المثل الشعبي يجب أن تحكمه ضوابط لا ترقى إليها هذه المقولات.

فمثلاً قيل في أن الحقيقة لا بد أن تظهر ولو بعد حين: "**بزقة تحت الحجر ما بتختفي**" (المقصود بالبزقة هو البصاق واللعاب).

وهناك الكثير من الأمثال المبتذلة التي يكثر فيها استخدام المفرزات البشرية بأشكالها، ننأى بالقارئ عن أن يقرأها كدعوتنا تماماً لتنحيتها عن الاستخدام العام لإساءتها لقائلها وسامعها في آن معاً.

إهانات عامة في الأمثال

لم تقتصر بعض الأمثال على استخدام الحيوانات والمفرزات البشرية، بل استخدمت ألفاظاً مهينة للسامع تماماً كما هي مهينة للقائل.

قيل مثلاً في تعميم أمر ما على جماعة من الناس: "**لا تشلح حدا من رجلك**"؛ تشبيهاً للإنسان بالحذاء، ولمن يظهر عليه الذنب أو الفعل السيئ "**يللّي فيه مسلّة بتنغزوا**".

وقيل عن الذي يكيد لشخص آخر: "**عم ينجّرلو خازوق**" (ينجّر من مهنة النجارة)، وارتفاع الصوت بين مجموعة من الناس وصف بالقول: "**بين النَّوَر ما في تكليف**".

ووصف الشخص المحب للترفيه أو يسعى للأفضل: "**بحب العلّيّة ولو على الخازوق**"، وكذلك وصف الشخص الذي يلبس لباساً لا يناسبه: "**متل الوردة على الشحاطة**"، أو يقال له: "**زبَّال وشاكل وردة**"، ولمن يراد تسفيه رأيه وفعله: "**متل الطَّعنة بالصرماية**"(الطعنة هي القطبة أثناء خياطة الحذاء).

أما في انتقاد العادات السيئة كالغيبة مثلاً فكان يتم أحياناً بابتذال، فقيل عن الذي يستغيب الآخرين: "**بالوش مراية وبالأفا صرماية**".

حتى في الصداقة تلك القيمة الإيجابية كان وصفها في بعض الأمثال سلبياً فقيل: "**لاتاخذ صاحب إلا من بعد أتلة**" (أتلة أي قتال وتصارع).

في حين نجد أن بعض الأدعية درجت على الألسن على خطورة فحواها؛ فيقال مثلاً: "**يفدح حريمك**" (يفدح أي يفضح الله نساءك)، ومثلها: "**يفضح عرضو**"، أو "**يحرق حريشو**"، أيضاً بمعنى حريمه، كما أن الدعاء بالعمى بالقول: "**والعمى**" شائع جداً، والبعض هذبه بأن حوله إلى كلمة "**العفا**" أو "**العمش**"، لكن المعنى يصل إلى السامع حتى لو تغيرت الكلمة، فمثلاً بدَّل البعض كلمة: "**عليِّي الطلاق**" بكلمة "**عليِّي الطرباق**" أو كلمة "**يلعن**" بكلمة "**ينعم**".

ودخلت بعض الأدعية في مجال الكفر، وحاشا أن نذكرها، لكن كانت محاولات البعض في تهذيبها، باستبدال كلمة الديب بالدين والرف بالرب مثلاً، هي محاولات فاشلة؛ لأن الكلمة ما زالت دارجة على الألسنة بغض النظر، فالسامع يعرف ما هو المقصود منها.

إن كل ماسبق ورد على سبيل المثال لا الحصر مع استبعاد كثير من الأمثال المؤذية في ألفاظها مع كثرة انتشارها، وهو إن دل على شيء فإنه يدل على الهبوط في بعض المقولات الشعبية والتشبيه إلى مستوى الحيوانات أو المفرزات البشرية، والسؤال هنا: هل يستطيع أي شخص مثقف وليد هذه البيئة أن يستشهد بهذه الأمثال أو يفكر في نقلها إلى الجيل التالي؟

من الأفضل لنا أن نبدأ بتحريف هذه الأمثال عن استخدام الألفاظ النابية، ونحولها إلى أمثال عامة تحمل الحكمة بعيدة عن الامتهان الإنساني، وهذا يحفظ لها الديمومة والاستمرار عبر الأجيال، ولا بد أن ننأى ببيئتنا عن أن تكون صورة أو عاكساً لهذه الأمثال، فهي أرقى من ذلك بكثير.

يقول الشاعر:

يموت الفتى من عثرة في لسانه وليس يموت المرء من عثرة الرجل

فـزلـتـه فـي فـيـه تـودي بـعـمـره وزلـتـه في الـرجـل تـبرا على مـهـل

عندما يصل الإنسان إلى مثل هذه الاستخدامات اللفظية فقد افتقر إلى المنطق السليم الذي يجعل مقولته تكتسب السيرورة، فلكي تستمر المقولة عبر الأجيال لا بد أن يكون من صفاتها - كما ورد في المقدمة - أولاً: أنها عامة لا تخصص لجيل أو ثقافة معينة، ثانياً: أن تتماشى مع المنطق والعقل وما عهده الناس، ثالثاً: أن تكون بعيدة عما يسيء للقائل وللمستمع، ورابعاً: أن تكون خالية من أي شيء يعيق حركتها وصيرورتها وانتقالها من جيل إلى جيل أو بلد إلى آخر، لأن الحكمة البشرية واحدة. والمثل الذي يتمتع بالصفات الأربع السابقة قادر على عبور الحدود والثقافات المختلفة والارتقاء إلى أن يكون حكمة إنسانية مطلقة.

openkandil.com